نهضة المعارف في مصر

علي مبارك باشا — ٤

بقلم الأستاذ محمد حسنين مخلوف

كان علي مبارك ظلا الخديوي إسماعيل باشا ، فاذا أردت أن تعرف ما كان يجيش بنفس إسماعيل بن ابراهيم من الآمال الكبار ليجعل مصر قطعة من أوربا حقا في زمن أقصر مما تقتضيه طبيعة الكون ، فانظر إلى هذه الوثبات في أعمال علي مبارك . فاسماعيل يؤسس الفكرة الأولية الجريئة ، وعلي مبارك ينضجها ويسلك السبل المختلفة في قلب الأرض رأسا على عقب في مثل سرعة البرق ليخرج له أنظمة هندسية ومدارس لتنهض بالبلاد وتقوم بما تتطلبه مصر الحديثة — فليس عجيبا أن تراه مديرا لجملة دواوين في وقت واحد أو ناظرا لجملة نظارات كما حدث بعد ذلك .

فقد علم الخديوي إسماعيل أنه أسند الأمر إلى يد صناع تخرج كل يوم عملا جديدا يبهر الأبصار ويملأ القلوب والأسماع .

ولعلك تعجب أن يكون المترجم مؤسس نهضة ثم لا تسمع له ذكرا في أزمات إسماعيل وفي الشباك التي نصبها له وكلاء الدول في مصر ورجال المال والأعمال في أوربا ، ذلك أن صاحبنا كان ذا حمية ونشاط في الانشاء العلمي والعمراني ، فلبرم به إسماعيل الراعي ، وليقل له اجعل مصر القاهرة تسامي الأستانة في عظمتها وجلالها ، وانشيء القصور المنيفة ، وحول مجاري النيل لتحول الجدب خصبا ، قال له ذلك فوجده أسرع من طرفه وأجرأ في تحقيق أمانيه من نفسه .

ولعل عليا كان هادىء الطبع لم يعتد المغامرات السياسية والمطامع النفسية ولم يتملكه حب السلطان وسطوة القدرة فلم يكن له ما كان لوزراء إسماعيل من الجبروت والتقدم إلى المطامع والخطوب سواء أكانوا ناصحين أم غاشين .

ولعله كان رجلا رأى يمتى رأسه نحو الأهواء وتحرك الأغاضى الأجنبية وتجاذب المنافع وصعود الناس على أشلاء الناس ، فآثر العمل المثمر الذي لا يختلف اثنان في عظيم نفعه وجليل أثره . ولعله كان يحس أنه أسير إحسان هذه الأسرة العلوية فهي التي رفعته

وعلمته فى مصر وفى أوربا ، وقد كان يمكن أن يكون راعى أغنام وسائس أبقار وكذلك النفوس العظيمة كلما ارتفعت صقلت أخلاقها الحوادث وتفانت فى الإخلاص لمن أحسن إليها .

لذلك لم يكن المترجم يصدر عن رأى يخالف إسماعيل أو توفيقاً حينما حكم مصر بعد ذلك، فلم يكن ذا أثر فى حادثة سياسية، أو ذا رأى عنيف فى الثورة العرابية، بل كان خصيا لرجالها راميا إياهم بالتسرع وسوء النية. ذلك لأنه كما قلت كان يحس دائماً أثر هذا البيت المالك من عهد محمد على فى إعزاز مصر وتمنى الخير لأهل هذه البلاد، ولكن الظروف السياسية ـ قاتلها الله ـ لا تجد الخير سبيلا إلى قلبها فتطوق من يلي بها بالأغلال ، ولا يجد فى الناس عاذراً أو رحيماً ؛ فكان توفيق باشا يهم بأمر الحزم ولم يستطعه ولأن علياً كان أحد الوزراء الذين قدمت الثورة لتذرى التراب فى وجوههم، فلست تنتظر منه بعد ذلك إلا أن يميل إلى ركن توفيق وكان يؤثر الأخذ بالأحزم والتروى فى الأمور، وأن يترك رجال الثورة الأمر للمستقبل يحقق وحده ما يبتغون إن كانوا صادقين . ويضرب المثل بنفسه فى الصعود فى المراقى الرفيعة مع أنه لم يكن تركيا ولا جركسيا . فكانت حياة على مبارك باشا طول عهد إسماعيل باشا حياة الدءوب الجاد الذى يعمل فى تواضع ليرضى الله ويرضى ولى نعمته معتقداً أن مصر فى حاجة كبرى إلى الإصلاح السريع، ولكنه كما يظهر لى كان منصرفا إلى المصلحة العامة أكثر من عمله لنفسه ولأنجاله من بعده، فلم ينتهز فرصة صعود نجمه ويحرز الأموال الطائلة والضياع الواسعة ولم يكن همه أن يكون أسبق من غيره فى الزلفى لإسماعيل مع أنه من خاصته، لذلك أمكن وزير المالية إسماعيل باشا المفتش أن يثنى به ويغير قلب الخديوى عليه فيحرمه وظائفه ودواوينه التى أخرجها من العدم إلى الوجود وحقق كثيراً من آمال الخديوى فى إبراز القاهرة فى حلة قشيبة ومنظر خلاب فى عين ملوك أوربا وعظمائها حين وفدوا لافتتاح قناة السويس ؛ وهكذا الملوك كما قال صاحب كليلة ودمنة (الملك كالبحر إن صدم أغرق وإن طلب جوهره أقدق) .

وليس غريباً أن يعزل على مبارك فعهدنا به أن عزل مرات فى عهد سعيد باشا ولا نحسبن أن تكرار عزله دليل على ضعفه بل أعده دليلا على سمو أخلاقه وفرط اعتماده على الله ، وإنه لم يكن مثله مثل أنداده : عين فى الوظيفة وعين فى تتبع مساقط الحاكم وألا يدال فى التقرب إليه بتصنع الإخلاص والوسوسة . لذلك لم يلجأ صاحبنا إلى هذه الحماقة بل جعل عمله دليل إخلاصه ولم يجعل لسانه أداة قربه، ثم لم يلبث أن رضى عنه الخديوى وأعاده إلى عمله لا ليكون رئيساً كامل التصرف بل مرءوسا مستشاراً فى الوزارات التى تقلدها الأمير حسين كامل (السلطان فيما بعد) فجد فى الإصلاح بهمة ماضية وقد أوضحنا أن هذه النفس لم يكن من طبعها قضاء الوقت فى التحاسد بل انصرفت إلى العمل احتفاء لوجه بلاده العزيزة وإخلاصاً لعزيز مصر إسماعيل .

وقد أوضحنا فى المقالات السابقة أن المترجم نشأ نشأة هندسية حربية فلم يتعلم فى الأزهر الشريف كشأن كثير من نظرائه ومع ذلك كان أثره فى التعليم أظهر أعماله ، وإدارته المدارس وإتقانها أحفل آثاره، وأنا أريد أن أتخذه برهانا على أن الدراسة الشخصية قوة هائلة يذلل بها الانسان العقبات، ذلك أن العلم والأدب عمل روحى ، وفنون الهندسة والحرب عمل مادى ويظهر أنه كان روحيا أكثر منه ماديا فقضت نفسه إلى العلم والأدب والتاريخ ، وقد تقادم سنه وحيل بينه وبين المدارس فلم يجد وسيلة لتثقيف نفسه سوى القراءة الكثيرة ، وهل يكون قائما بأمر المعارف مرشدا للمعلمين ثم لا يكون عالما خلاقا فى مواد الدراسة ؟ ذلك لا يستقيم أبدا وخاصة أنه هو الذى ينشىء المعلمين والتلاميذ إنشاء يعتمد على الدراسة الشخصية التى أردنا من معلمى المدارس فى أول مقالاتنا أن يعكفوا عليها ، واتخذنا هذا الرجل العظيم مثلا صالحا لما نحن بسبيله . فالقراءة المستمرة عن رغبة وحب فيها تربى الانسان وتصقل ذهنه أكثر مما تعمل المدارس المنتظمة . نعم إن الدراسة المدرسية أقوم سبيلا وأصح تتبعا لنظريات العلوم ، ولكن قراءة الانسان بنفسه أعمق فى النفس وأدخل بها فى غمار الحياة . وأكثر من رأيته من رجال الاجتماع والسياسة هم من قرأوا كثيرا ودرسوا الحياة فى طباع الناس واتصلوا بعصارات العقول البشرية ولا أحسب مدرسة فى العالم تكفل شيئا من ذلك

فلا تعجب إذاً أن يؤلف على مبارك الخطط التوفيقية فى عشرين جزءا وهى سجل فى وصف مدن مصر وتاريخها على نحو خطط المقريزى ، ثم لا تعجب أن يصل به حب الاصلاح والنفوذ إلى تهذيب النفوس بتأليف رواية عمرانية دينية تسمى (علم الدين)

وسنذكر شيئا من سيرته وأعماله الجليلة لنكمل ما يقتبس الناس من تحليل حياته الحافلة بالعظائم:

فى سنة ١٨٧٠ م عهد إليه الخديوى إسماعيل أن ينشىء دارا عظيمة للكتب تكون أداة التثقيف والتعليم فى مصر بجانب المدارس التى أسسها ، فاتخذ نواة ذلك جمع الكتب المتفرقة فى مخازن الحكومة ومكاتب الأوقاف والمساجد ، وقد كانت أوربا تتهافت إلى علوم الشرق فكانت ترسل المستشرقين إلى من عنده الكتب فتباع بأثمان لا تعادل قيمتها لتضمها إلى مجاميع مكاتبها ، ولولا عناية المترجم بذلك لتسربت الكتب من مصر شيئا فشيئا ولكن الله أراد بالعلم خيرا فانتزعت من لا يحسنون القيام عليها ثم صدر أمر الخديوى بالانتفاع العام بها لطلاب العلوم والمعارف ، فتيسر الاطلاع على مؤلفات ومخطوطات لم يكن للناس علم بها من قبل ، ولا تزال تؤدى خدمات للنهضة العلمية والأدبية هى : دار الكتب المصرية مفخرة مصر والشرق . ثم أنشأ مجلة (روضة المدارس) بإشراف وزارة المعارف وتنفقاتها من خزينتها ليكتب فيها المعلمون والطلبة ويطالعوا وليطلعوا الناس على مختلف البحوث فى العلوم

الآداب واشتهروا على الكتابة والتحرير . وكان على مبارك لا يفتأ يعمل ويبدع فى أغلب نواحي الأنظمة الجديدة فوسع شوارع القاهرة وأنشأ الأحياء الجديدة واشترك فى مستحدثات الإنارة بغاز الاستصباح ومد الأنابيب بالمياه الصالحة إلى المنازل بواسطة شركتى النور والمياه وقال عن نفسه: (فكنت فى مدة إحالة هذه الدواوين على مشغولا بالمصالح الأميرية وتنفيذ الأغراض الخديوية ليلا ونهارا حتى لا أرى وقتا ألتفت فيه لأحوالى الخاصة بى ولا أدخل بيتى إلا ليلا لى كنت أفكر فى الليل فيما يعمل فى النهار)

ولما قامت نظارة رياض باشا اشتغل المترجم ناظرا للمعارف وديوان الأوقاف فاستأنف العمل فى إنهاض التعليم . ولما قام بالأمر توفيق باشا اشترك فى الحكم قبل الثورة العرابية وبعدها ، ثم لزم بيته وألح عليه المرض فوافته المنية فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ م فأقفلت المدارس حدادا عليه وارتجت البلاد أسفا لفقده وقامت الصحف بإعلان وفاته وتعداد آثاره ورثاه طلبة دار العلوم التى أنشأها شعرا ونثرا، وخلدوا أثره فى المدرسة بعمل اكتتاب اشترك فيه كل المتخرجين فيها من أول تأسيسها إلى يوم وفاته، فرسموا له صورة زيتية بحجمه الطبعى يراها من يزور دار العلوم فى مكتبتها شاهدة بخلود أثره وجميل صنعه

وماذا نقول فى رجل نشر النور فى مصر ووضع أساس العرفان وبنى بيده مصر الحديثة وكان حقا على مصر ألا تنسى ذكره على مدى الأيام .

حسين حسن مخلوف

المدرس بالمدرسة الخديوية

رسائل سائر

فضيلة الأستاذ الشيخ محمد سليمان ، علم من أعلام الكتابة العربية فى هذا القطر، وله فى تاريخ العلم وماضى حافل مجيد من نحو ربع قرن ، فهو صاحب مقالات « أبو التلاميذ » التى صدرت من أجلها القوانين وانتفع بها عشرات الألوف من البنين والبنات واليوم يتحف أبناء هذا القطر والأقطار العربية بكتابة « رسائل سائر » التى دون فيها رأيه ومشاهداته فى أسفاره من بلاد العرب إلى بلاد اليونان، وفيها يجد المطالع مع لذة المطالعة وجمال الوصف ، مواضع العبرة ، ومقابلات التاريخ ، وأمانة الرواية